تحسين بشير: السلام: المعضلة! والحل!

أسامة أيوب

التحقيق

فى حديثه إلى « أكتوبر » تناول السفير تحسين بشير – آخر مندوب دائم لمصر فى الجامعة العربية – بالتحليل من خلال رؤية خاصة المعضلات التى تواجه معادلة السلام فى الشرق الأوسط .

وأكد أن السلام قد طرح اتجاها للحل – رغم يطرح برشامة للحل – وهو القبول الطوعى المتبادل والمفاوضة المباشرة بين الأطراف ..

ثم تحدث عن المعضلات التى تواجه الحكومة الإسرائيلية التى وصف سياستها بأنها ستؤدى إلى نسف إسرائيل نفسها .. وقال إنه لأول مرة يهاجم يهود أمريكا الحكومة الإسرائيلية وفى حديثه تكلم أيضا عن الواقع فى العالم العربى الذى يملك أغنياؤه بناء كل الدول العربية وتخضير الصحارى العربية والإنسان العربى من خلال ثورة خضراء تاريخية .. وأوضح إمكانية أن يطرح العرب على إسرائيل الاستغناء عن المساعدات الأمريكية مقابل استفادتها من الثورة الخضراء العربية ..

وحذر فى حديثه من أن تتحول الثروة العربية من نعمة إلى نقمة .

فى بداية حديثه فى أكد السفير بشير أن السلام فجر طاقات عظيمة فى منطقة الشرق الأوسط .. هذه الطاقات لم يتم استيعابها بعد ، لأنه – أى السلام – أحدث تغييرا نوعيا إلى جانب التغيير الكمى ..

والأزمة حاليا هى استكمال السلام فى الشرق الأوسط .

وبصفة خاصة :

● المحافظة على الوضع القائم لحقوق الشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية بما فيها القدس وقطاع غزة .. وأيضا وقف المستوطنات والإجراءات والتحركات التى تقوم بها حكومة بيجين فهى الكفيلة فى إنجاح حكم ذاتى حقيقى يؤدى فى النهاية إلى حق تقرير المصير .

● تطوير مشكلة الشرق الأوسط لتؤدى إلى خلق مناخ فكرى يدفع إلى الأمام بحق تقرير المصير فى إطار سلام بين إسرائيل والفلسطينيين ويؤهل الأرضية السياسية لحل شامل طويل الأمد بين جميع دول المنطقة .

وفى المرحلة الحالية .. بما فيها من إرهاق فكرى ، وأمام التصرفات المختلفة ، فإن السؤال هو : هل سينجح السلام أولا ؟ .. أو بصياغة أخرى : هل من الممكن بناء صرح للسلام الشامل فى المنطقة ، وبدلا من أن يكون سلاما مصريا إسرائيليا فقط يصبح سلاما عربيا إسرائيليا ؟ ..

ومن خلال رؤيته الخاصة للقضية الصراع العربى الإسرائيلى منذ بدايتها فإن السفير تحسين بشير يرى أن هناك معضلتين تواجهان معادلة السلام الصعبة فى الشرق الأوسط ..

المعضلة الإسرائيلية

المعضلة الأولى : وهى إسرائيلية ذات طرفين :

□ الطرف الأول :

إسرائيل فلسطينى (عرفى) : ذلك أن آباء الحركة الصهيونية منذ هرتزل ، كانوا يظنون أن حل مشكلة اليهود يمكن أن يتم فى صياغة سهلة ، وهى أنهم شعب بلا وطن يسعى للحصول على أرض ليس عليها شعب .. ثم يجمعون يهود العالم على هذه الأرض ويقيمون دولتهم ..

غير أنهم فى التطبيق واجهتهم مشكلتان :

● الأولى أن فلسطين أرض عليها شعب .

ولكنهم – أى اليهود – استطونوا الأرض وأبعدوا الفلسطينيين (الشعب الأصلى) عن السهول الخضراء ، ليظل من بقى منهم لاجئين فى أرضهم فلسطين ، فكانت المشكلة الأولى فى التطبيق خلق أزمة إنسانية لم يكن آباء الحركة الصهيونية ، يتوقعونها ..

وفى مواجهة هذه الأزمة الإنسانية حاول اليهود تعريب « الفلسطينيين ودفعهم للتحول ليعيشوا فى بلاد عربية أخرى .. غير أن الفلسطينيين أصروا على هويتهم الفلسطينية ثم على انتمائهم بعد ذلك للقومية العربية ..

وتعلل اليهود للهروب من مأزق هذه الأزمة الإنسانية بأنه إذا كان الفلسطينيون قد تعذبوا .. فإن عذاب الشعب اليهودى كان أكبر .

● المشكلة الثانية : أن اليهود الذين اختاروا القومية اليهودية على استعداد للموت فى سبيلها والدفاع عن بقاء دولتهم .. وأيضا فالشعب الفلسطينى الذى تمسك بالبقاء على أرضه . والفلسطينيون فى الخارج ، يحاربون وعلى استعداد للموت فى سبيل تحرير الأرض .

□ والطرف الثانى :

للمعضلة الإسرائيلية .. إسرائيل يهودى ..

ذلك أن إسرائيل رغم أنها حققت دولة للقومية اليهودية الصهيونية ، فإنها لم تنجح فى جمع يهود العالم ولا حتى أغلبية يهود العالم ، فلا تزال الولايات المتحدة بها من اليهود أكثر من ضعف يهود إسرائيل .. ولا تزال نيويورك يعيش عليها من اليهود أضعاف اليهود فى أية مدينة إسرائيلية حتى تل أبيب ذاتها .

وفى هذه المعضلة تتصارع بؤرتان .. الحركة الصهيونية بشكلها المتشدد التى تريد أن تجمع اليهود فى إسرائيل .. ويهود العالم الذين اختاروا بحرية وبلا ضغط أن يبقوا خارج إسرائيل .

ورغم أن هذه حقيقة قوية تماما ولا أمل فى تغييرها ، بل على العكس هناك هجرة مضادة من داخل إسرائيل إلى الخارج سعيا وراء حياة أفضل ووراء الحرية والأمان ، فإن الصهيونية لا تزال تتكلم عن جمع اليهود فى العالم .

ثم إن يهود العالم وخاصة يهود أمريكا ، رغم مصالحهم وفهم دور رئيسى فى المجتمع الأمريكى .. لم يجدث أن هاجموا حكومة إسرائيلية فى سياستها علنا منذ قيام دولة إسرائيل .

بل كان هناك الحرص الدائم على أن يكون الحوار مغلقا داخل العائلة اليهودية .. على اعتبار أن الإسرائيليين أدرى بمصلحتهم كدولة .. ومهمة الصهيونية فى أمريكا هى تأكيد استمرار الدعم والمساندة الأمريكية سياسيا وعسكريا وعلميا وتكنولوجيا .

ثم جاء السلام .. وتأكد أن مصر منذ مبادرة الرئيس السادات جادة ومخلصة فى السلام .. وهنا بدأ لأول مرة فى تاريخ إسرائيل والصهيونية حوار علنى بين اليهود الأمريكيين وغير الأمريكيين الموالين لإسرائيل .. وبين حكومة بيجين .. والذين بدأوا الحوار هم اليهود الموالون لإسرائيل .. فهاجموا السياسة التى يتبعها بيجين .. لأنها تضر على المدى الطويل بمصلحة إسرائيل ومصلحة يهود العالم .

وعندما وجد اليهود الأمريكيون أن أساليب الحكومة الإسرائيلية تقطع الطريق على السلام تكلموا علنا .. وذهبت مجموعة لإسرائيل .. وهناك هاجموا بيجين وسياسته ونشروا المقالات والإعلانات فى الصحف الإسرائيلية ذاتها .. انتقدوا فيها سياسة بيجين .

وكان على رأس هذه المجموعة البروفيسور « فاين » وهو يهودى أمريكى موال لإسرائيل .. ولكنه تزعم الهجوم على بيجين وسياسة الحكومة الإسرائيلية ، ونشر مقالا فى « جيروزاليم بوست » هاجم فيه بيجين ، واضطر بيجين للرد عليه فى نفس الصحيفة ، ثم رد هو بعد ذلك على رد بيجين .

حقيقة الأمر أن هذا الحوار لم يكن ممكنا قبل بدء عملية السلام .

ثم هذه المعضلة التى تواجهها إسرائيل .

ولا يستطيع أحد حتى يجبن نفسه مواجهتها. وهى الفلسطينيون فى الضفة الغربية وقطاع غزة..

وقبل مبادرة السلام لم يكن العرب قد طرحوا السلام. ولكن الذى ثبت بعد ذلك أن أكبر دولة عربية وهى مصر قادرة بل مثابرة على السلام. فى الوقت الذى تلجأ فيه إسرائيل إلى الاستفزاز..

ويرى السفير محسن بشير أن إسرائيل لا تملك إلا أحد اختيارين للتخلص من معضلة الفلسطينيين داخل إسرائيل. والاختياران ليسا حلا.

الأول: أن تقوم إسرائيل بضم كل الشعب الفلسطينى داخل إسرائيل إلى إسرائيل.

وفى هذه الحالة ستحول إسرائيل من دولة يهودية إلى دولة متعددة الجنسيات والأديان.. ثم هناك العامل السكانى.. لأنه فى خلال سنوات مهما كانت أحجام الهجرة لإسرائيل فإن الشعب الفلسطينى سيصبح أغلبية.

الأمر الذى يجعل هذا الاختيار غير صالح للتطبيق من وجهة النظر الإسرائيلية. لأن فلسفة قيام الدولة الإسرائيلية كانت تقوم على إقامة دولة يهودية.

والاختيار الثانى: هو ضم الأرض وطرد الفلسطينيين.. وهو إجراء «فاشى».. إلى جانب أنه لا توجد أغلبية إسرائيلية تؤيد هذا الإجراء.. كما أنه غير ممكن عمليا، وإن كانت هناك جماعات إسرائيلية متطرفة تدعو إلى ذلك..

وهم فى إسرائيل يواجهون من هذه العضلة ولا يجدون حلاً لها.. بل لا تناقش علانية.. لأن أى حل ديمقراطى سيجعل الفلسطينيين أغلبية فى إسرائيل.

ومن خلال تحليله للموقف داخل وخارج إسرائيل.. فإن السفير محسن بشير يؤكد أن إسرائيل والحكومة الإسرائيلية «تتسف نفسها»!!

المعضلة العربية

وينتقل الحديث مع السفير محسن بشير إلى المعضلة الثانية فى عملية السلام.. وهى المعضلة العربية الفلسطينية.

فيقول إن مشكلة الفلسطينيين أنهم لكى يضمنوا لعملية السلام فإن عليهم قبول مبدأين:

١ – أن هدف السلام هو الاعتراف المتبادل بين إسرائيل والفلسطينيين.

٢ – خلق جو يمهد للسلام مع الدخول فى المفاوضات.. بإنهاء إطلاق النار.. ووقف العمليات الفدائية الفلسطينية ووقف العمليات الإسرائيلية.

ويشرح معنى القبول المتبادل، فيقول إن معناه مواجهة المشكلة. لأنه فى هذه المرحلة التاريخية تمكن استعادة الماضى.. ولا تمكن عودة كل فلسطين.. بل من الضرورى قبول جزء منها لإقامة الدولة فى الضفة والقطاع..

والسلام كما يقول السفير المصرى.. طرح المعضلة وطرح أيضا معها «اتجاه» الحل.. وهذا يتقدم «برشاقة» الحل.. وأى حل من الضرورى أن يتم على أساس القبول الطوعى المتبادل بالمفاوضة المباشرة مع الأطراف.

وإن كانت إسرائيل تنظر الآن إلى الفلسطينيين كما كنا ننظر إليها قبل السلام.. فهى تقول عن الفلسطينيين إنهم مزعومون وإنه لا وجود للشعب الفلسطينى!!

ومن ناحية ثانية فإن السلام ليس ممكنا أن يتم فى شكل مأدبة تقدم فيها كعكة يتم تقسيمها إلى أجزاء وتأخذ كل دولة قطعة.. ولكن السلام هو صراع كمى ونوعى لإيجاد علاقات حقيقية بين شعوب هذه المنطقة لصالح القاعدة العريضة من الشعوب.. ويكون مردوده فى المدى الطويل.

اتجاه الحل

ولكن ما معنى أن السلام طرح اتجاه الحل؟.. المعنى أننا فى مرحلة انتقالية.

وهناك أسلوبان منطقيان.. الأول وهو الأسلوب الاستقرائى.. يعنى أنه إذا اتفقنا على الحل يتم تنفيذه على مراحل.

والأسلوب المنطق الثانى وهو الاستنباطى: أن نسير خطوة خطوة.. ثم نتفاوض بعد كل خطوة للمرحلة التالية.. والحقيقة أن كلا الطريقين مطلوبان فى هذه القضية.

ومن هنا فإن الحل يتطلب من جميع العناصر فى هذه المعادلة الصعبة أن تتجه نحو الحل السلمى السياسى.

ويؤكد محسن بشير ضرورة إيجاد صيغة دولية للضغط المتصاعد فى سبيل السلام، بحيث تعلم جميع الأطراف أن مصلحتها الذاتية لا تتحقق بطريق الحرب..

وإذا كانت السياسة هى علم الممكن.. فإن فى تفكيرنا العربى مفهوما خاطئا أحيانا لمفهم السياسة.. بمعنى أن الممكن ليس معناه القبول والخضوع للأمر الواقع.. ولكن قبوله لمواجهته وتغييره بطرق عملية إلى واقع جديد.. وهى فى مجملها قوة السلام.

ثم يطرح الخاطر الحالية الآن.. وهى كيف نتخطى المرحلة الوسيطة بين الخطوات الأولى للسلام ومواجهة تهرب الأطراف من عبور البرزخ الصعب نحو إقرار هذه المعادلة بالنسبة لإقرار إسرائيل بحقوق الفلسطينيين وإقرار الفلسطينيين بحقوق إسرائيل.

ونحن الآن نواجه مرحلة جديدة، وهى المرحلة الوسيطة التى يتم فيها التمهيد لتصعيد السلام.. فإن الطرف الإسرائيلى يزرع العقبات والمشاكل فى طريق السلام.. والأطراف العربية امتنعت عن الحركة وقبلت سياسة الرفض ولم تجد بديلا حقيقيا. ولكن.. بغض النظر عن الصيغة والشكل والأسلوب فإنه لا مفر من مواجهة مشكلة السلام.

ثم تأتى بعد ذلك المرحلة القادمة وفيها تتم تعبئة التأييد الدولى على جميع المستويات.. وليس الحكومات فقط.. وليس الولايات المتحدة فقط. بل أوروبا الغربية ودول العالم الثالث ودول عدم الانحياز والكتلة الاشتراكية.. وذلك لتأييد حلق الإطار الذى يدفع بعملية السلام، وفى نفس الوقت يؤمن للأطراف احترام مصالحها بالسلام والمساهمة فى تحقيقه وليس برفضه.

مخاطر الفرصة الضائعة

ووراء علامات التعجب يؤكد أن العرب يواجهون حقيقة مخاطر الفرصة الضائعة.. كيف؟!

لأن العالم الغربى واليابان يعتمد اعتمادا رئيسيا لسد احتياجاته البترولية على البترول العربى.. وعلى سبيل المثال فإن التقديرات لما ستدفعه الولايات المتحدة فقط خلال الأربع السنوات القادمة للدول العربية البترولية مقابل البترول تبلغ – وبدون انزعاج من الرقم – (٣) آلاف مليار دولار!

وقد تتأرجح التقديرات نتيجة تغيرات ما.. ولكن فى أى حال فإن هذا الرقم سيهبط إلى النصف.. وهو رقم خطير أيضا!

تحضير الصحراء والإنسان العربى

وهذا يعنى أن العالم العربى لديه فائض يكفيه لإعادة بناء جميع الدول العربية.. بحيث تتم عملية تحضير الصحراء.. «وتحضير الإنسان العربى» ليكون قوة حقيقية منتجة.. يأخذ من الحضارة ويضيف إليها.. وليس قوة مستهلكة «بكسر اللام» ومستهلكة بفتح اللام!!

وبجزء من هذه الفوائض العربية تستطيع الدول العربية الغنية أن تنمى الدول العربية غير البترولية.. ويستطيع العرب أن يمنوا أنفسهم وشعوبهم باستعمال التكنولوجيا الأجنبية التى يدفعون ثمنها.. فيستفيدون ويفيدون العالم.

بل إن العرب – والكلام للسفير محسن بشير – يستطيعون أن يطرحوا أمام إسرائيل: أنها يمكن أن تنهى اعتمادها على المساعدات الأمريكية.

إذا هى ساهمت فى عملية السلام مع الفلسطينيين واعترفت بحقوقهم.. من خلال الاستفادة بالثورة التاريخية التى يستطيع العالم العربى أن يخوضها. وهى ثورة سلمية خضراء منتجة..

وفى النهاية يقول السفير محسن بشير.. إن التحدى الذى يواجهه العالم العربى هو: هل توجد القيادات العربية القادرة على التنسيق واتخاذ المواقف المتوازنة حتى إذا انعدم التنسيق؟..

ويتساءل.. هل نستخلص من الطاقة والثروة التى منحها الله للعالم العربى إجابة للتحدى التاريخى بتخفيف عبء التنمية على الشعوب العربية واجتياز برزخ التخلف. أو ندفع لخلق مجتمع المستهلكين ومصدرى رءوس الأموال للعالم الغربى هروبا من التنمية؟.. وهل ستبنى الإنسان العربى المنتج الذى هو فى النهاية مورد الطاقة الحقيقية فى العالم العربى؟.

هل يستطيع العرب حل معضلتهم ويكونون سادتها أو يفشلون ويقعون أسرى لها.. ويحدث لهم كما حدث فى إيران؟.. والشعوب العربية تعلم أن هناك فرصة تاريخية من الضرورى الاستفادة منها.. لأن أسوأ مثل قد ضرب فى لبنان.. وهى من أكثر الدول العربية ثراء.. ولكن قضى عليها من الداخل.. لأنه لا أحد هناك من الأطراف اللبنانية استطاع أن يتغلب على معضلته التاريخية.. ويأيد لبنانية تحطمت لبنان.. كما أنه بأيد إيرانية تتحطم إيران..

هل سيحول العرب ثرواتهم من نعمة إلى نقمة وإلى سلاح يحطمون به أنفسهم؟! إنه التحدى الذى على العرب أن يواجهوه.. ويتعاونوا فى ذلك.

□ □ □

وبيقى أن أقول إن هذا اللقاء مع السفير محسن بشير – آخر مندوب دائم لمصر فى الجامعة العربية – قد تم بعد أيام قليلة من عودته من الولايات المتحدة، حيث كان فى دورة دراسية فى معهد العلاقات الدولية بجامعة هارفارد الأمريكية، وهى دورة تمنح للسفراء فى دول العالم.

والرؤية التى طرحها السفير محسن بشير خلال حديثه معى، هى فى الواقع نتيجة معايشة الرجل للقضية الصراع العربى الإسرائيلى، وهى أيضا وبصفة خاصة خلاصة ما خرج به من خلال العديد من الأبحاث التى قدمها وقرأها، وعشرات الندوات التى حضرها وحاضر فيها أثناء الدورة الدراسية فى هارفارد.

ومن خلال المعايشة للمجتمع الأمريكى وكيف ينظر الأمريكان للقضية العربية الإسرائيلية بعد مبادرة السلام.

وهذه الأسباب.. فإن هذه الرؤية تستحق كل التقدير والكثير من الدراسة.. من كل الأطراف فى القضية.. العرب وإسرائيل.

□

هيرتزل